الشيخ خليفة بن حسن الأقماري
ومنظومته النحوية

أ . العزوزي حرزولي
جامعة الوادي

ملخص:
يهدف هذا المقال إلى إبراز إسهامات منطقة سوف والجزائر عموما في التأليف النحوي عن طريق النظم في ظروف زمانية ومكانية غاية في الصعوبة بتناول منظومة الشيخ خليفة بن حسن الأقماري لمتن الأجرومية بالعرض والتحليل والتعريف بهذه الشخصية العلمية الفذة كواحد من علماء هذه المنطقة .

Résumé
Cet article a pour but de présenter la participation de savon de la région de Souf dans l'écriture grammatical dans une période très compliquée en étudiant cette personnalité scientifique.

مقدمة

تكمن أهمية هذا العمل في أنّ هذه المنظومة تُعَدّ أول تأليف نحوي في منطقة سوف وصل إلينا-في حدود علمي- فقد عاش الناظم في القرن الثامن عشر للميلاد في بيئة صعبة إذ كان في آخر الفترة العثمانية التي عرفت بضعف التـــأليف و كانت الحياة العلمية في تلك المرحلة في أضعف أحوالها حتى شاع بين الدارسين الاصطلاح على تلك الحقبة بعصر الضعف و الانحطاط، وكانت أقصى غاية المتعلمين استيعاب ما أنتجه العلماء السابقون أو إعادة صياغته أو التفريع عليه في الأغلب .بالإضافة إلى ذلك فان إقليم سوف صحراوي صـــعب المسالك بعيد عن الحواضر العلمية وهذا النظم عينة عن المنهج السائد في ذلك العصر.

التعريف بالناظم:

خليفة بن حسن الأقماري (1123هـ-1207هـ)1 ويتصل نسبه بأبي بكر الصديق رضي الله عنه لأنه من أولاد سيدي الشيخ، ولد بقمار و بها تلقى تعليمه الأول على عادة أبناء بلدته ثم انتقل إلى خنقة سيدي ناجي وبها واصل تعليمه2 على يد كوكبة من العلماء وكانت وقتئذ قبلة طلبة العلم من أماكن كثيرة وقد بقي خليفة بن حسن على صلة بعلمائها عن طريق

المراسلات العلمية3 ومن ذلك هذه الأبيات التي أرسلها إلى علماء خنقة سيدي ناجي، في منازعة بينهم في العمل لمعرفة أثر السارق المتهم ومنها قوله4:

سلام له في الصالحات أصول يوافيه من عند السلام موصول
إلى السرج الأثبات من آل خنقة لهم في ندور الواقات نقول

وقد أجابه محمد بن مبارك الصائغي وهو من علماء الخنقة5:

أيا من غدا للمشكلات يحول سل إن رمت عن حبر لهن يصاول
لقد حاز قصب السبق فيها تقدما به تجتلي للقاصرين النوازل

وقد برع في كثير من العلوم الإسلامية ومنها الفقه والحديث ومن أشهر مؤلفاته "نظم جواهر الإكليل"، أما في المجال اللغوي فقد وصلنا جزء من نظمه لمتن "الأجرّومية" محل الدراسة.

العرض و التحليل:

اللغة العربية هي لغة الثقافة والحضارة الإسلاميتين في مختلف العصور وقد أنزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين ومن ثمّ مرتبطا بأوثق الصلات باللغة العربية ولهذا توالت جهود المسلمين عبر العصور في خدمة القرآن الكريم وتسخير علوم العربية وكثير من تآليفهم لهذا الهدف السامي ،وعلماء هذه المنطقة من الجزائر ساروا على هذا النهج قال الشيخ الطاهر العبيدي:6

فكل من قد جهل الإعراب في دينه قد أخطأ الصوابا
حيث النبي والكتاب عربي وخاتم الوحي لسان العرب
وقال شمس في كتاب النفحات علم اللغات فرضه كالصلوات

ومنطقة وادي سوف و رغم البعد عن الحواضر العلمية وشظف العيش وقلة ذات اليد في صحراء مترامية الأرجاء، لم تكن أبدا بعيدة عن أجواء العلم فقد أنجبت العديد من العلماء العاملين. وقد ألفوا على طريقة عصرهم خاصة المنظومات، فقد كان الشعر التعليمي "من قديم....وأغلب الظن أن سبب انتشار هذا النمط الشعري عائد للجهود العربية التي بذلها الأدباء والمعلمون في تلك الأوقات و لمجاراة انتشار التعليم... لجأوا إلى الشعر لعلمهم أنه أفضل و أسرع وسيلة لذلك"7.وصلة العرب بالشعر قديمة معروفة فهو ديوان حياتهم فيه أيامهم و مآثرهم، لم يجاريه فن آخر في التعبير عن أفكارهم و آرائهم.

وسنتخذ من منظومة الشيخ خليفة بن حسن الأقماري أنموذجا في الدراسة(1123هـ -1207 هـ)على الأرجح وهي نظم رسالة "الأجرّومية" لصاحبها أبو عبد الله محمد بن داوود الصنهاجي الفاسي المعروف بابن آجرّوم(ت732هـ)النحوي المقرئ الذي ولد في السنة التي توفي فيها ابن مالك صاحب الألفية المشهورة وهي مقدمة في ورقات قليلة، وقد كُتب لها من

الذيوع والشهرة8 **ما جعل شروحها تزيد عن المائة**9 **فهي سهلة موجهة إلى المبتدئين يقول أحد ناظمي "الأجرّومية" وهو الميمون بن مساعد المصمودي (ت 816 هـ)** 10

والقصد من ذات الرجز المقرب تعليم أولاد صغار المكتب
أيقنت أن النظم فيما أدري أشهى وأولى من نفيس النثر

كما قال الشيخ خالد الأزهري: " وبعد فهذا شرح لطيف لألفاظ "الأجرّومية" في أصول علم العربية ينتفع به المبتدئ إن شاء الله ولا يحتاج إليه المنتهي، عملته للصغار في الفن والأطفال لا للممارسين للعلم من فحول الرجال" 11.

ولم يصلنا من نظم متن "الأجرّومية" لخليفة بن حسن الأقماري سوى 71 **بيتا**12 **التي نقلها الشيخ الطاهر التليلي و لولا ذلك لأصابها ما أصاب كثيرا من المخطوطات من ضياع أو تلف أو حبس في المكتبات العائلية وسنتخذ من هذه المنظومة مدونة للدراسة و أنموذجا للتأليف اللغوي في القرن الثامن عشر بمنطقة سوف.**

يقول الشيخ خليفة بن حسن في منظومته:

لك الحمد ربي دائما و مُكَمَّلا و شكرا لمأ أوليته متفضلا
و صل و سلم يا إلهي وعمدتي على المجتبى من ذروة المجد والعلا
محمد الآتي بيسر و رحمة و تخفيف أسر كان من قبل أثقلا
و أصحابه الأخيار و الآل كلهم و تابعهم و التابعين على الولا
و بعد فذو المنظوم ينشر طيه بنثر ابن آجروم إذ منه نقلا
و ذا لكون النثر يصعب حفظه و حفظ بيوت النظم أدنى و أسهلا
و أسال من فضل الكريم تمامه فلا فضل يرجى من سواه مؤملا
كلامهم لفظ مفيد مركب بوضع كزيد محسن إذا توكلا
و أقسامه فيما بعد ثلاثة هي اسم و فعل حرف معنى به جلا
فبالخفض و التنوين الاسم معرف وأل وحروف الخفض قل هي من إلى
و عن وعلى في رب و البا و كافها و لام لملك أو لشبه تأهلا
هي الواو و الباء فالتاء تخفض ما تلا و منها حروف الليـن ثلاثة
بقد و بسوف السين تاء مؤنث مسكنة تعريف فعل ليسهلا
علامة حرف كونه غير قابل لما مر من تلك العلامات فاقبلا
و الإعراب تغيير لآخر كلمة لأجل اختلاف من عوامل أدخلا
فطورا يرى لفظا و طورا مقدرا كزيد و موسى ضمنهما إن تجملا
و أربعة أقسامه الرفع فاعلمن و نصب و خفض بانجزام تكملا
فيدخل في الأسماء رفع و نصبها كذلك في الأفعال جاء محصلا

وقد خصت الأسماء بالخفض مثل ما تخصصت الأفعال بالجزم مدخلا
علامات رفع اللفظ في العد أربع هي الضم و الواو الذي منه علا
كذا ألف و النون فالضم قد أتى دليلا لرفع في مواضع تجتلى
ففي جمع تكسير و جمع مؤنث سليم و في اسم مفرد ذلك اعملا
كذلك في الفعل المضارع إن يكن مؤخره من كل شيء تبتلا
و عن ضمة قد نابت الواو يا فتى بجمع صحيح بالذكور تفضلا
وفي خمسة الأسماء وهي أبوك مع أخوك حموك فوك ذو مال أفضلا
و قد عوضت من ضمة ألف أتت بتثنية الأسماء لا غير فاقبلا
كذا النون نابت في ارتفاع مضارع إذ بضمير فاعل قد توصلا
لجمع ذكور أو لأنثى شهيدة كذا ألف لاثنين من ذلك مسجلا
و خمس علامات بها النصب ينجلي فأولها الفتح الذي قد تأصلا
كذا ألف و الكسر واليا و حذف ما من النون في فعل المضارع أعملا
فنصب بفتح في ثلاث مواضع بمفرد أسماء و جمع تحولا
و في الآتي من فعل تعرى آخره و حل به بعض النواصب أولا
و عض ألفا من فتحة عند فقدها لدى خمسة الأسماء تكفي التحملا
و قد ناب كسر في انعدام لفتحة بجمع إناث للسلامة أُهلا
كما عوضوا ياء بجمع مذكر و تثنية منها فكن متأملا
و حذفك نون لانتصاب مضارع يكون دليل النصب فيه محصلا
ثلاث علامات لخفض تقررت هي الكسر و اليا ثم فتح تنزلا
ففي جمع تكسير وفي اسم لمفرد و جمع إناث سالم كسرها انجلا
بشرط انصراف الأولين وعوضت من الكسر يا فيما من الأصل قد خلا
و ذلك في جمع صحيح مذكر و خمسة أسماء مثنى لها تلا
وعند انعدام الصرف في الاسم عوضوا من الكسر فتحا فاعرفنه لتجملا
علامات جزم الفعل ثنتان لا سوى سكون و حذف فالسكون قد انجلا
بفعل أخير اللفظ منه مصحح و حذف أتى فيما من الفعل عُللا
كذلك حذف النون بعد مضارع علامة جزم الفعل عند ذوي العلا
و قد قسموا قسمين ما جاء معربا فذو حركات نائبا و مؤصلا
و ذو أحرف ثبت لفقد أصولها و كل تقضي حسبما كان فُصِّلا
فأربعة أنواع قسم مقدم هي الاسم ذو الإفراد والجمع كالدلا
و ثالثها جمع صحيح مؤنث و رابعها الفعل مضارع إن خلا
مؤخره من كل شيء و كلها تعرب إعرابا على ما تأصلا

فرفع بضم و انتصـــاب بفتحة و خفض بكسر و السكون لما خلا
سوى ثالث الأنواع جاء انتصــابه بكسر و عكس الأولين قد انجلا
فما كان ممنوعا من الصرف منهما فقد جعلوا من كسره الفتح مبدلا
كما جاء حذف من سكون مضارع دليلا إذا كـان الأخير معللا
و يختص إعراب الحروف بأربـع يوفى لدى الموعود منهـا معجلا
مثنى و جمع سالم لمذكـــر وخمسة أسماء مضت ذكرها انجلا
و رابعها الفعل المضارع إن يكن ملابس نون للضمائـر قد تـلا
ففي ألف رفع المثنى نيـــابة وبالواو رفع التاليين تحصـلا
و بالياء نصب الأوليـن و ثالث و قد نابت اليا في انكسار جميعها
له ألف بالانتصـاب تكفـــلا فكن فطـنا لا وانيا و مغفـلا
و في رابع نابت عن الواو نـونه وفي النصب والجزم احذفنها مبتلا
ثلاثتها الأفعال لا غير عــدها مضى و أمر بالمضـارع كملا
فيلزم في الماضي البناء و غالبا يكون على فتح كصـام و أهملا
وسكّنه إن يرفع ضميرا لفاعـل كقمتم و قمنا و استقمتم إلى العلا

وهنا بياض واسع من هنا إلى باب المفعول به و المفعول و جدت منه قطعة قصيرة من النظم لم تفِ بكل الباب ، ثم يلحق البياض إلى باب الظرف فتوجد منه قطعة فقط ثم تغيب شمس النظم و لا تعود ، و تترك القارئ يتلهف على المقصود غير قانع بالموجود ، قال13 :

إذا جاءك المفعول من بعد فاعل وكان عليه الفعل أوقع مسجـلا
فذلك مفعول به منـــه ظاهر كأكرمت زيدا و اقتنيت المجملا
ومنه ضمير كارتضاك و شاقني و أكرمه عمـرو و إياي عجـلا
فمنفصل منها اثنتـان و عشرة كذا في انفصال عدها ليس مهملا
وكيفية التربيع إذا رمت حصره فخذه على وجه الصواب مذلـلا
فتنظر في حالي حضور و غيبة لتسعد بالمطلـوب قبـلا موصلا
و تضرب في جمع مثنى ومفرد تكون بسـت فادرها متهلـلا
وفي حالة التذكير تضرب خارجا وفي هذه نلت المـراد مكمـلا

و هنا بياض بالأصل إلى قوله له في باب الظرف14:

إذا جاءك اسم للزمـان مؤول بفي فهو ظرف بانتصاب تسربلا
و قد عددوا من ذلك يوم و ليلـة وغدوة أيضـا بكرة سحـرا ولا
صباحا مساء عتـمة أبدا و زد لها أمدا حينا ووقتا مكمـلا
وما كان من ظرف المكان فحكمه كحكم الذي قد مر إن كان أولا
بفي كالجهات و المقادير كلـها إذا كان وصف الحد عنها تنزلا
ضمير و اعلام و يتلـوه مبهم ومدخول أل أو ما أضيف لما خلا
كانت و زيد جئتها ذاك الـفتى وأزهار عمر ضارب من تحيـلا
و إن رمـت إدراكا لرسم منكر فما شاع في جنس كفرد من الحلا
و تقريبه أن يعرف اللفظ صالحا لمدخول أل فاعكف على الرشد وانقلا

و من المهم القول أننا التزمنا بما نقله الشيخ الطاهر تليلي بتحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله، و قد أشار الشيخ الطاهر إلى أن ما بقي من هذه المنظومة أقل من الذي ذهب" و الذي فات منه أكثر من الذي حصل"15.

التحليل:

أشار إلى أن هذا العمل نظم لعمل نثري والمقصود رسالة ابن أجروم بغية نشرها:

و بعد فذو المنظوم ينشر طيه بنثر ابن آجروم إذ منه نقلا

وقد برّر نظمه لكون النثر يصعب حفظه بعكس الشعر و المتون المنظومة من أبرز مظاهر الثقافة السائدة وكان النمط التعليمي الشائع المتلائم مع الواقع المعيش في تلك الفترة التي تتسم بندرة الكتب وانتشار الفقر ذلك أن النظم العلمي يختلف عن المتن العلمي المنثور فهو أيسر للحفظ و أقرب للاستحضار فكان النظم وسيلة ناجعة في التعليم ، وإن الباحث ليدهش حين يفتح كشف الظنون على مادة "ألفية ابن مالك" مثلاً، فيجد لها زهاء سبعين خادماً بين شارح ومحشٍ وناظم وشارح شواهد. ويزداد دهشة حين يجد لكافية ابن الحاجب في النحو مئة من الخدمة، بل إن للأجرّومية، وهي الأخرى من مقدمات النحو، ما يزيد على أربعين شرحاً وحاشية في المكتبة الظاهرية وحدها"16

ومنطقة سوف في القرون الأخيرة اتصفت بكل ما من شأنه الدفع إلى طريقة ميسرة في التعليم لانتشار الفقر وندرة المراكز العلمية المهمة إن لم نقل انعدامها.

ومن الملاحظ أن الناظم قلما يمثل وان جاء بمثال فيكون سهلا مألوفا عند دارسي العربية كما في هذا البيت:

فطور يرى لفظا وطورا مقدرا كزيد وموسى ضمنهما إن تجملا

استعمال العبارات الدالة على الغرض التعليمي مثل فاعلمن- كن فطنا-فادرها- وكثيرا ما استعمل انجلى مع مشتقاته وهذا فيما يبدو إلحاح منه على التوضيح وقد جاء النظم سهلا بلغة واضحة غير متأثر بسمة ذلك العصر المتصف بالتعقيد ولعل مردّ ذلك قدرة الشيخ على النظم و موهبته الشعرية إذ كانت له منظومات مختلفة ومقطوعات شعرية. ومما يبدو جليا كذلك تقيُّد الشيخ خليفة بن حسن بالمتن إلى درجة إعادته بطريقة قريبة إلى الحرفية يقول ابن آجروم الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع.

يقول الناظم :

كلامهم لفظ مفيد مركب بوضع كزيد محسن إذا توكلا

وأقسامه ثلاثة اسم و فعل و حرف جاء لمعنى17

وأقسامه فيما بعد ثلاثة هي اسم و فعل حرف معنى به جلا

و الاسم يعرف بالخفض و التنوين و دخول الألف و اللام و حروف وهي من إلى و عن و على و في وربّ و الباء و الكاف و اللام و حروف القسم وهي الواو و الباء والتاء18

فبالخفض و التنوين الاسم معرف و أل و حروف الخفض قل هي من إلى
وعن و على في رب و البا و كافها و لام لملك أو لشبه تأهــلا
هي الواو والباء تخفض ما تلا

ـ والملاحظ كذلك التقيد بترتيب ابن آجروم[19] **إذا بدأ بأنواع باب الكلام ثم باب الإعراب....ثم باب الأفعال، ثم باب مرفوعات الأسماء، ثم باب المفعول الذي لم يسمَّ فاعله، ثم باب المبتدأ و الخبر...إلخ عدا بعض الشرح كما في البيت الأخير.**

وكان من الشائع في النظم التزام الخطوات التالية: البسملة، تسمية نفسه، الحمدلة، والصلاة والسلام على الرسول- ص- و عبارة و بعد[20] **كالذي نجده عند خالد الأزهري الذي شرح متن الأجرّومية... وقد وقفنا على أكثرها عند الشيخ خليفة بن حسن.**

ومن أشهر منظومات "الأجرومية"الدرّة البهية في نظم "الأجرومية" لشرف الدين يحي بن نور الدين أبي الخير بن موسى العمريطي(ت989هـ)، و قد طبعت قديما و كانت من مقررات الأزهر أما في الجزائر فقد أقبل الدارسون على "الأجرومية" نظما وتدريسا وشرحا ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: الدليل على "الأجرومية" لمحمد الصالح الرحموني الوجدالي1242هـ.[21]

نظم "الأجرومية" لابن إدريسو محمد بن سليمان بن صالح بن ابراهيم 1298هـ[22]

نظم "الأجرومية" لمحمد المولود مفتي قسنطينة.

نظم "الأجرومية" للبوني أحمد بن قاسم بن محمد النميري 1139هـ[23].

هوامش الدراسة.

[1] إتحاف القارئ بحياة الشيخ خليفة بن حسن الأقماري ، الشيخ محمد الطاهر التليلي ، تحقيق أبو القاسم سعد الله ، كراسات المجلس ، العدد 4 ، أفريل 2007 م ، ص : 12 ـ 14.

[2] تجارب في الأدب والرحلة ، أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983 م ، ص :257.

[3] نفسه ، ص261.

[4] إتحاف القارئ ، ص45 .

[5] نفسه ، ص49.

[6] الطاهر العبيدي (1304هـ ـ 1387هـ)؛ أحد أبرز علماء سوف له مؤلفات لغوية وفقهية قيمة وكثيرة مزال أغلبها مخطوطا ، الشقيقان ، عاشور يقمعون ،مطبعة مزوار ، الوادي ، الجزائر ، ط1 ، 2010 م والأبيات ص45.

[7] شرح ألفية ابن معطي ، لعبد العزيز بن جمعة الموصلي ، تحقيق ودراسة علي موسى الشوملي ، دار البصائر ، الجزائر، ط1، 2007م ،83/1.

[8] نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، محمد الطنطاوي ، مصر ، ط2 ، د ت ، ص265.

[9] تاريخ النحو في المشرق والمغرب ، محمد المختار ولد باه ، بيروت ، ط2 ،2008 ، ص380.

[10] نفسه ، ص381.

[11] شرح المقدمة الأجرومية في أصول علم العربية ، خالد بن عبد الله الأزهري ، اعتناء نزار حمادي ، دار بن ابن عرفة ، تونس ، ط1 ،2012م ،ص12.

[12] إتحاف القارئ بحياة خليفة بن حسن الأقماري ، الشيخ محمد الطاهر التليلي ، ص 37 ـ ص 44.

[13] الكلام ، الشيخ محمد الطاهر التليلي ، إتحاف القارئ ، ص 42.

[14] التنبيه للشيخ الطاهر التليلي ، ص43.

[15] إتحاف القارئ ، ص 44.

[16] النحاة العرب وسبلهم في التأليف ، محمد وليد حافظ ،مجلة التراث العربي ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، عدد 35 ـ 36 ، أبريل ويوليو1989 م ، ص42.

[17] متن الأجرومية ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن داوود الصنهاجي ، دار الصميعي الرياض، 1998 م ، ص6.

[18] نفسه ،ص 5

[19] نفسه ، أنظر مثلا ص5 ،ص6.

[20] منهجية التأليف النحوي في شرح الأجرومية لخالد الأزهري ، أحمد جلايلي ، مجلة الآداب واللغات ، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة ، الجزائر، العدد 5 ، مارس 2006 ، ص15.

[21] المصنفات اللغوية للأعلام الجزائرية عبر القرون ، مختار بوعناني ، دار هومة ، الجزائر ، 2001م ، ص77.

[22] نفسه ، ص 130.

[23] نفسه ، ص 130.